

الاستغراب وأفق الحوار الحضاري

تَرْكِيبي المَفِيض

أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكويت

الملخص

يعد علم الاستغراب استثنائاً لعلم قديم نشأ عندما كان العرب والمسلمون في مركز قوي، وكانوا حريصين على معرفة الشعوب الأخرى، وبخاصة في مجال العقيدة. وكان رواد ذلك ابن حزم والبغدادي وابن تيمية وابن قيم الجوزية. ويأتي كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ ليشكل نموذجاً رائعاً في دراسة (الغرب) الآخر.

ومرّ مصطلح الاستغراب في العصر الحديث بمراحل تعاقبية ثلاث؛ الأولى: تمثيلة لمجموعة من الباحثين والمفكرين العرب الذين تأثروا بالغرب في سلوكهم وأفكارهم، والثانية: دلالته على التغريب؛ إذ أصبح الذين تأثروا بالغرب وانبهروا به يُعرفون بالمغتربين، أما المرحلة الثالثة فهي استقرار المصطلح على مفهوم الاستغراب وتحوّل معناه إلى معرفة الغرب من الداخل معرفة علمية موضوعية موثقة، ودراسة ثقافته وتحليلها وبيان مكوّناتها الأساسية ومنابعها الأصلية. وتوسّع مدلول الاستغراب إلى أن أصبح علماً يبحث - فضلاً عما سبق - عن صورة الشرق في الوعي الأوروبي كما يبحث عن صورة الغرب في الوعي الشرقي.

ولعل بداية دراسة الغرب في عصر النهضة كانت فيما نقله رفاة الطهطاوي وخير الدين التونسي والجزيري وغيرهم عن أوروبا. وظهرت فيما بعد دراسات - وما زالت تظهر - منذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال وشكيب أرسلان، والعقاد ومالك بن نبي وغيرهم.

ويضاف إلى ذلك ما تبناه الدكتور حسن حنفي في دراساته حول «علم الاستغراب» لتأسيس رؤية نظرية وعملية له؛ سعياً منه إلى وضع أسسه ومصادره وهيكله الأولي، وأصبح الاستغراب هو الوجه الآخر، والمقابل، بل النقيض، من الاستشراق، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)، فإن الاستغراب هو رؤية الآخر (الغرب) ودراسته من خلال الأنا (الشرق).

ولقد تمت دراسة الغرب وفق أسس مركزية وجدليات شائكة، أهمها:

- 1- جدلية الأنا والآخر.
- 2- جدلية الشرق والغرب.
- 3- جدلية الاستشراق والاستغراب.
- 4- جدلية الهوية والعولمة.

وقد ساهمت في تشكيل هذه الأسس دوافع أساسية ومحورية تابعة من شعور عميق بالذات كى تتحول من ذات مدروسة إلى ذات دارسة، وكى لا يظلّ العرب مجرد متلقين لما يقوله الغرب عن نفسه وعنّا، كما ينبغي علينا أن نفك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على المركزية الأوروبية، وأن ندرس الغرب كما درّسنا ونقضي على مركّب العظمة لدى الآخر (الغرب)، ونعكس مقولة جونه الشاعر الألماني الكبير في قصيدته "الهجرة": "الشمال والغرب والجنوب في قتال / فلتهرب أنت إلى الشرق" فتصبح: "الشرق والشمال والجنوب في قتال / فلتهرب إلى الغرب"

إهداء

يعد علم الاستغراب استثنافاً لعلم قديم نشأ عندما كان العرب والمسلمون في مركز قوي، وكانوا حريصين على معرفة الشعوب الأخرى، وبخاصة في مجال العقيدة، حتى إنه ظهرت كتب الفرق والملل والنحل في التراث الإسلامي منذ وقت مبكر. وكتب ابن تيمية في عقائد اليهود والمسيحية، وابن قيم الجوزية في هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

إنّ العلاقة بين المعرفة والقوة تعمقها الدراسات الحديثة، وتكشف من خلالها جانباً مهماً من تاريخ العلاقة بين «الإخوة الأعداء» في الغرب والشرق التي يمثل الاستشراق من بعض الزوايا جانبها الممهد لها والنتائج عنها في آن واحد. وهذا الفهم لديناميكية العلاقة الموجودة بين المعرفة والقوة ربما يفسر وجود نزعة معرفة الشرق للغرب (الاستغراب) في عهد قوة الدولة الإسلامية⁽¹⁾.

صورة الغرب في الدراسات العربية

إن صورة الغرب في الدراسات العربية تمثل انطباع حقيقة الآخر في مرآة الذات، وهي مقارنة له (الآخر) ومعاينة لطبيعته من خلال الدراسات والرحلات والمشاهدات، منطلقة من السعي إلى معرفة الآخر وتبيان لما يمتلكه من إمكانيات والحرص على معرفة الشعوب الأخرى، وأول هذه الدراسات ما قام به الرحالة المسلمون الذين لم يكتفوا بنقل الأخبار أو وصف المشاهد، بل حاولوا تحليل بعض الظواهر الغامضة وتسجيل مواقفهم عما شاهدوه التي لا تتلاءم ومعتقداتهم وأعرافهم. ومن هؤلاء الرحالة: الاصطخري أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي 957 / 346م صاحب «المسالك والممالك»، وابن بطوطة أبو عبدالله محمد بن عبدالله 1377 / 759م في رحلته المسماة «تحفة النظار في غرائب الأمصار» وابن جبير أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني 1217 / 614م.

لقد عكست هذه الرحلات في القرون الوسطى مركزية دار الإسلام وصورة الآخر، وجسدت سيادة الحضارة العربية الإسلامية وأكدت مقولة المستشرقة الألمانية زيغرد هونكه إن شمس العرب تسطع على الغرب، وكانت هذه المقولة عنوان كتابها.⁽²⁾ ويأتي كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ ليشكل نموذجاً رائعاً في دراسة «الغرب» الآخر. فقد تناول فيه جوانب من حياة الفرنجة؛ فوصف طباعهم وأخلاقهم، وتحدث عن مزاياهم وعيوبهم. فكتاب «الاعتبار» يعد من أول الأعمال الأدبية العربية التي حاولت أن تتعاطى مع صورة الآخر، وذلك في وقت كانت فيه الكتب التي يصدرها هذا الآخر عن الشرق والمسلمين حافلة بالتجني والأحكام المسبقة. وقدم دراسة عن الغرب فيها أمانة الكتابة وموضوعية النظرة⁽³⁾.

لقد مر مصطلح الاستغراب في العصر الحديث بمراحل تعاقبية ثلاث، الأولى: تمثيله لمجموعة من الباحثين والمفكرين العرب الذين تأثروا بالغرب في سلوكهم وأفكارهم؛ والثانية: دلالته على التغريب؛ إذ أصبح الذين تأثروا بالغرب وانبهروا به يعرفون بالتغريبيين، أما المرحلة الثالثة فهي استقرار المصطلح على مفهوم الاستغراب، وتحول معناه إلى معرفة الغرب من الداخل معرفة علمية موضوعية موثقة، ودراسة ثقافته وتحليلها وبيان مكوناتها الأساسية ومنابعها الأصلية بغرض تحويله من مصدر العلم إلى موضوع للعلم كوسيلة لتحرير الأنا العربية الإسلامية من الوقوع في تقليد الغرب والتبعية له دون التنكر لإنجازاته العلمية والتقنية والحضارية.⁽⁴⁾ وتوسع مدلول الاستغراب إلى أن أصبح علماً يبحث - فضلاً عما سبق - عن صورة الشرق في الوعي الأوروبي كما يبحث عن صورة الغرب في الوعي الشرقي.

وفي هذا الإطار يسهم الاستغراب إلى حد كبير في إنجاح الحوار مع الغرب لتغيير العالم نحو الأفضل وفي أكثر من اتجاه. إذ ليس هدف الاستغراب دراسة الغرب من أجل تضخيم الذات وإعلائها وتقزيم الآخر، وتصويره بأنه شر لا بد من إزالته، وإنما هدف الاستغراب دراسة الغرب بعيداً عن الحقد والأحكام المسبقة، ولهذا لا بد من النهوض بالاستغراب في الشرق وإصلاح الاستشراق في الغرب لإنجاح الحوار الحضاري، ونشر الأمن والسلام والعدالة والتنمية في العالم من خلال عمل الشرق والغرب معاً، من أجل مد جسور الحوار والتواصل المتوازن وتغيير العالم نحو الأفضل والأمن⁽⁵⁾.

ومن الدراسات المبكرة في عصر النهضة التي تناولت دراسة الغرب كتاب عبد الرحمن الجبرتي (1825 - 1756) المعنون بـ«عجائب الآثار في التراجم والأخبار» والمشهور بـ«تاريخ الجبرتي». فالجبرتي في كتابه يصور الآخر على طريقة العلماء المسلمين. وجاءت آراء الجبرتي حول الشؤون السياسية للفرنسيين من حيث نظام الحكم ومنشوراتهم ورصد أهدافهم من الحملة ووجودهم في مصر. وتناول بعض الشؤون الاجتماعية، حيث سجل مشاهداته وتجاربه العملية، وتفاوتت مواقفه من الحياة الاجتماعية والثقافية للفرنسيين. وكان معجبا باهتمام الفرنسيين بالمعرفة وحب العلم، ولكنه كان ساخطاً على تصرفات النساء عندهم وخروجهن للعمل سفارات على غير المعهود في المجتمعات الإسلامية في ذلك الوقت.⁽⁶⁾

ويأتي كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي ليصور العلاقة بين الأنا «الشرق» والآخر «الغرب» من خلال رؤية تقدمية تعبر عن حس نقدي وانفتاح حر، مقارنة مع التصورات الكلاسيكية التي تجسدها الرحلات في العصور الوسطى وما قبلها. وأشار الكتاب إلى عمق إشكالية العلاقة بين الأنا والآخر، ودعا فيه الطهطاوي العرب والمسلمين إلى الانفتاح على الغرب والإفادة من علومهم ومعارفهم ليتجاوزوا واقعهم السيئ⁽⁷⁾.

لقد اكتشف الطهطاوي الوجه الحضاري للغرب الذي يناصر العقل والعلم كوسائل للتقدم والتمدن والحوار، ولهذا دعا إلى الانفتاح عليه وعدم الانغلاق على الذات ونبذ الآخر. وهذا ما ينبئ عنه العنوان الفرعي لكتابه، وهو «الديوان النفيس في إيوان باريس»، فهو يعترف بقيمة الآخر ونفاسه ما يمتلك من علم ومعرفة وحضارة.

وإن كان في كتاب الطهطاوي وصف للآخر، فهو أيضاً وصف للأنا على ضوء تشريحه لوضعية الآخر، فصورة الآخر ما هي إلا وسيلة لرسم صورة للأنا. ولهذا دعا الطهطاوي الشرقيين في شخص المصريين إلى ضرورة الاقتداء بالغرب من خلال الحوار والتفاعل الإيجابي مع حضارتهم، واقتباس ما هو جدير بالاقتباس منهم⁽⁸⁾.

لقد كانت الرحلات العربية منذ الجبرتي إلى شكيب أرسلان (1869- 1946) بحثاً عن الذات أكثر مما هي اكتشاف الآخر، إلا أن الطهطاوي -عكس الجبرتي- رسم صورة للغرب من خلال معايته له من خلال عاصمة الحضارة الأوروبية باريس. والجدير

بالذكر أن رحلة محمد بلخوجة التونسي في رحلته «ملوك الإبريز في مسالك باريز 1900» شبيهة برحلة الطهطاوي، وكذلك رحلات شكيب أرسلان؛ حيث قام برحلاته من لوزان بسويسرا إلى نابولي بإيطاليا إلى بورسعيد في مصر، واجتاز قناة السويس والبحر الأحمر إلى جدة ثم إلى مكة، وسجل في هذه الرحلات كل ما شاهده وقابله. ومن أشهر كتبه ذات العلاقة بالآخر هو «لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم».

ومن الدراسات التي توجهت إلى دراسة الغرب كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» لخير الدين التونسي الذي أبرز فيه المستوى الحضاري الرفيع والمكانة المرموقة التي كانت بلاد الإسلام عليهما يوم كان الغرب لا يزال غارقاً في ظلمات القرون الوسطى⁽⁹⁾. والكتاب مؤلف من مقدمة طويلة وجزئين، يشتمل الجزء الأول على عشرين باباً، كل باب مخصص لبلد من البلاد الأوروبية، وتضم الأبواب فصولاً تتضمن الحديث عن تاريخ البلد وجغرافيته وموقعه ومساحته وأهم ملوكه وتنظيماته الإدارية والسياسية والعسكرية. ويحتوي الجزء الثاني على ستة أبواب، خمسة منها في جغرافية القارات الخمس، وخصص الباب السادس للبحار⁽¹⁰⁾.

وشكلت المقدمة أهمية كبرى؛ كونها تلخص مشروع خير الدين التونسي الحضاري والنهضوي المرتكز على ضرورة التجديد والاجتهاد في الشريعة الإسلامية، بما يتلاءم وأحوال العصر وظروف المسلمين، ويتفق مع ثوابت الشريعة، وضرورة الأخذ بالمعارف وأسباب العمران الموجودة في الغرب؛ لأنها - كما يرى خير الدين التونسي - طريق المجتمع إلى النهوض والتقدم.

ووضع مالك بن نبي (1973 - 1905) يده على أهم قضايا العالم المتخلف وعلاقته بالغرب في سلسلة من الكتب تحت عنوان «مشكلات الحضارة». ويضاف إلى ذلك ما تبناه حسن حنفي في دراساته حول «علم الاستغراب» لتأسيس رؤية نظرية وعملية له؛ سعياً منه إلى وضع أسسه ومصادره وهيكله الأولي، وأصبح الاستغراب هو الوجه الآخر، والمقابل بل النقيض، من الاستشراق، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال الآخر (الغرب)، فإن الاستغراب هو رؤية الآخر (الغرب) ودراسته من خلال الأنا (الشرق).

ويهتم «علم الاستغراب» بدراسة مفهوم «الغرب» وتجليات صورته وعلاقته بالشرق وكيفية الحوار معه، ومعرفة ما عند العرب من علوم وثقافة وحضارة وتكنولوجيا. وهذه

المحاور تساعد على فتح باب حوار الحضارات وتلاقح الثقافات وتلاقي الآراء والأفكار، وتعمل على دحض نظرية صدام الحضارات التي اقترحها هنتغتون أو نهاية التاريخ بحسب رأي فوكوياما.

ويهدف علم الاستغراب إلى إظهار الصورة المتنوعة الموضوعية للغرب، وإبراز عدم حيادية الغرب في تشكيل الصورة النمطية للشرق، وبخاصة في أدب الرحالة الأوروبيين. ولعل قيمة كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق» تكمن في كونه يكشف أنّ الغرب تصوّر الشرق تصوراً استعماريّاً عرقياً وفوقياً، متجذراً في القوة واتحاد القوة بالمعرفة، والإنشاء الذي ولده ذلك كله. وأنّ الشرق لم يكن في وعي الغرب الآخر الخارجي فقط، بل امتداداً أيضاً للشاذ والمنحرف والمجنون والمستضعف داخل الغرب: للآخر الداخلي أيضاً⁽¹¹⁾.

ومن هنا تنبثق أهمية علم الاستغراب الذي يتصدى لدراسة الغرب، ومعاينته باعتباره كيانا مشكلاً. فكتاب إدوارد سعيد وفق رأي كمال أبي ديب مترجم الكتاب «لا يدور على دقة تصور الغرب للشرق، بما هو فضاء جغرافي ثقافي متميز وصحته، بل إنه لا يدور على الشرق، بل إنه ينفي وجود الشرق. إنه كتاب عن الغرب وإشكالاته الفكرية، والخلخلة الجوهرية في ثقافته، والمفارقات الضدية الأساسية التي تقوم فيه بين ما يعتبره مبادئ لتطوره الحضاري والبحثي والعلمي، وبين الطريقة التي يعاين بها الآخر، حين يكون هذا الآخر الشرق، وحين تتم هذه المعاينة في إطار القوة الفوقية والسلطة⁽¹²⁾».

ومن خلال دراسة الغرب يتم بيان انطباع حقيقة الآخر في مرآة الذات، ويجب أن تنطلق هذه الدراسة من نزعة موضوعية لا تقصد تشويه صورة الغرب. ويمكن تصنيف الدراسات والأعمال العربية التي سعت إلى معرفة الغرب ودراسته كما يلي:

1 - الشعراء: لقد كشفت الذات الشاعرة رؤيتها للغرب بأبعاده الموافقة والمخالفة، وبينت الروح الإنسانية التي تتمتع بها تلك الذات ودعوتها إلى وحدة إنسانية تنبذ العداء وتعزز التسامح والحوار.

2- الأدباء والنقاد: لقد كثرت الدراسات التي تناولت صورة الغرب بأبعاده المختلفة تناولاً موضوعياً وفنياً. وجاءت هذه الدراسات في إطار موضوعات متعددة، مثل: صورة الغرب في الرواية العربية الحديثة، والرحلة إلى الغرب، والصراع الحضاري.

3 - دراسات فكرية وتاريخية واجتماعية ونفسية تناولت الرحلات العربية إلى الغرب.
4 - دراسة المكان : توقفت هذه الدراسات عند صورة المدن الغربية وتجلياتها في الشعر والنثر.

5 - دراسات تناولت علوم الغرب ومنجزاته الحضارية.
ومن حق كل أمة أن تعرف منزلتها لدى غيرها من الأمم، وأن ترى صورتها في مرآة الآخر من آداب الشعوب، وبهذا يمكنها أن تعرف نفسها حق المعرفة، وتحاول تصحيح وضعها أو الدفاع عن نفسها، وبذلك تتهيأ الفرصة للتفاهم الحقيقي والتعاون البناء بين الأمم.⁽¹³⁾

جدليات دراسة الغرب وأسسها

لقد تمت دراسة الغرب وفق أسس مركزية وجدليات شائكة، أهمها :

- 1- جدلية الأنا والآخر.
- 2- جدلية الشرق والغرب.
- 3- جدلية الاستشراق والاستغراب.
- 4- جدلية الهوية والعولمة.

1 - جدلية الأنا والآخر

إن علم الاستغراب ليس علماً نظرياً وحسب، بل هو أيضاً ممارسة عملية لجدلية الأنا والآخر. فعلم الاستغراب مشروع يمثل إعادة تقييم مذاهب الآخر ابتداءً من مقولات الأنا وإعادة بناء اتجاهات الآخر العقلانية والتجريبية وفلسفات الحياة اعتماداً على تراث الأنا، واستعمال تراث الأنا كعلوم للغايات، ويستقرئ المفكر ذلك بروح الفقيه القديم الذي يعي موقف حضارته بين الحضارات⁽¹⁴⁾.

وإذا كان الاستشراق أو الاستغراب هو (الآخر)، فنحن في الاستغراب نمثل (الأنا) واستناداً إلى هذه الثنائية نجد أن الاستشراق أصلاً ولّد نوعاً من المعاندة لدى (الأنا)، وهي ترى أحكام (الآخر) فيها قائمة على روح الاستعلاء الاستعماري بعد أن خضعت الحضارة العربية وخاصة الإسلام إلى تحليل (الآخر) وفق معطياته. كما أن التشويه والمغالطة التي قام بها الآخر عن قصد أو غير قصد أدّى إلى بروز المعادين للاستشراق في الفكر العربي

الحديث والمعاصر. ومن ناحية أخرى خلق الاستشراق نوعاً من الضغط على (الأنا) لمواكبة الغرب (الآخر) في كل شيء. وقد قاد ذلك - كما يقول حسن حنفي - إلى أخذ موقف من الغرب والتغريب بالفرض الانفعالي المطلق كنوع من الدفاع عن الذات وتأكيد الهوية⁽¹⁵⁾ ونتيجة لفرض الاستعمار نماذج ثقافية، وتعامله مع الدول المستعمرة بطريقة استعلائية ظهرت - ادعاءً - في صورة المعلم، وعلى (الآخر) أن يتلقى منه لأنه الأفضل والأعلم والأقوى، وتعامل مع الآخر من منطلق إغائه أو استلابه.

وإذا كان الاستشراق قد ارتبط بالاستعمار، كما عبّر عن ذلك إدوارد سعيد في كتابه (الاستشراق) فإنه مارس أيضاً عملية استعلاء أرسطراطي ثقافي واستعمار لإرادة الآخر وتسييرها لخدمة مصالحه. وكان لا يرى في الآخر سوى مجرد مشاريع للاستثمار قابلة للقبولية والهيمنة والاستلاب.

وقبل ظهور كتاب (الاستشراق) لإدوارد سعيد بنحو ستين عاماً أصدر عمر فاخوري كتابه «آراء غربية في مسائل شرقية»⁽¹⁶⁾، ففي فترة ما بين الكتابين قارب المثقفون العرب ما يمكن تسميته «وعي الاستشراق»، ويجد المرء قاسماً مشتركاً بين الكتابين أو بين المؤلفين، بالرغم من التباين بينهما منهجياً ومعرفياً. فيشير عمر الفاخوري إلى إعادة خلق (الآخر) على غرار (الأنا). وهذا ما قاله إدوارد سعيد بعد ستين عاماً بشكل آخر، كما وصل فاخوري إلى ما يسميه إدوارد سعيد وغيره من دارسي الشرق في الأعوام الأخيرة: نفي الآخر. فإن تصوّر الغرب للشرق هو تصور يشكّل أو يُنتج فيه الغرب ذاته أيضاً، لهذا سيكون له حصته من (النفي) لذاته⁽¹⁷⁾.

إن تواصل نزعة نبذ الآخر وإقصاءه والابتعاد عنه لا تخدم مصالح العرب، وتسد أبواب الانفتاح والحوار الحضاري، كما أنّ التماهي فيه من موقع التماثل لا تخدم أحوالنا في شيء، فالعلاقة بين الأنا و الآخر علاقة مركبة وجدلية يصعب بأي حال اختزالها في إطار علاقة بسيطة تقبل الحل الجاهز.

2 - جدلية الشرق والغرب

لقد شكّلت علاقة الشرق بالغرب نسيجاً فكرياً وأديبياً بدأ مع بواكير النهضة العربية الحديثة، وفرض الغرب نفسه على الشرق عندما جاء في صور شتى، محتلاً ومستشرقاً وسائحاً وبعثاً لإرساليات تبشيرية وتعليمية.

وعلى صعيدي الفكر والأدب استأثرت المقابلة بين الشرق والغرب بحيز كبير من السجال الفكري الذي دار بين أدباء النهضة في النصف الأول من القرن العشرين. ونشأت عدة صحف ومجلات عكست هذا السجال وأثرت الحياة الثقافية. وقد تضمنت هذه الصحف والمجلات مقالات تناولت علاقة الغرب بالشرق، وأخرى تحدثت عن الغرب وعلومه. وكانت أبرز غايات مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» مد جسور الثقافة بين الشرق والغرب⁽¹⁸⁾.

ومثلما ارتحل الكثير من الغرب إلى الشرق أمثال لامارتين (1790- 1869) وشاتوبريان (1768- 1848) الذي كتب رحلته المعروفة بـ (مسار من باريس إلى القدس) وجاب العالم الإسلامي دون أن يرى فيه شيئاً سوى أنه قائم على أنقاض الإغريق والمسيحية، لكنه سجل عبارات غاية في الأهمية حول نقد الاستبداد، منها قوله: «إنني لا أرى شعباً بل قطع غنم يقوده إمام وينحره جلاذ»⁽¹⁹⁾.

كما أن هيجل الفيلسوف الألماني كتب في برلين كتابه «العقل في التاريخ» (1822- 1828)، وشبه فيه العقل بالشمس التي تطلع من الشرق لكن اتجاهها الطبيعي هو الغرب حيث تبلغ المستقر والكمال. فالشرق طفولة الإنسانية والغرب كمالها⁽²⁰⁾.

إن صورة الغرب في ثقافة المسلمين هي أحد طرفي العلاقة بين الشرق والغرب، وكل طرف له أثر لدى الطرف الآخر بحركة مزدوجة سلباً وإيجاباً، ذلك أن أهمية الآخر تكمن في أنه يشكل جزءاً من الذات⁽²¹⁾.

وتتجلى أول علاقة بالغرب في عصر النهضة والانفتاح عليه بإرسال البعثات، وأولها بعثة إلى فرنسا عام 1826 التي ضمت أربعة و أربعين طالباً، وكان إمامها رفاة الطهطاوي. وتعد هذه البعثات انفتاحاً ثقافياً مهماً بين الشرق والغرب. وتأتي بعد البعثات في الأهمية الرحلات التي قام بها أفراد في مهمات رسمية وغير رسمية، وكلاهما رقد الفكر العربي وأدب الرحلات بالعديد من الأعمال الفكرية والأدبية التي سجل فيها كاتبوها مشاهداتهم وتصوراتهم الفكرية للعلاقة بين الشرق والغرب. وكان كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الصادر عام 1834م خير شاهد على دراسة الغرب من خلال باريس. وكان هذا الكتاب فاتحة لمناقشة العديد من القضايا الشائكة التي ما زالت في بؤرة الأحداث

حتى اليوم. وقد توالى الكتب التي أنتجتها الرحلة إلى الغرب بعد كتاب رفاة الطهطاوي،
من مثل :

1 - أحمد بن أبي الضياف (ت 1874)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد
الأمان.

2 - الشيخ محمد عياد الطنطاوي، تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، وبدأت رحلته إلى
روسيا سنة 1840 واستمرت إلى سنة 1860، لكنه فرغ من كتابه سنة 1850 م.

3 - أحمد فارس الشدياق، الساق على الساق فيما هو الفارياق، صدر في باريس
1855 م.

4 - فتح الله المراش، رحلة باريس، بيروت 1867 .

5 - خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس 1867 م.

6 - لويس صابونجي، الرحلة النحلية، الأستانة 1874 م.

7 - علي مبارك، علم الدين، القاهرة 1883 م.

8 - علي الورداني، الرحلة الأندلسية، تونس 1888 م.

9 - محمد شريف سالم، رحلة إلى أوروبا، القاهرة 1888 م.

10 - حسن توفيق العدل، رسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا، القاهرة
1891 م.

11 - أمين فكري، إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا، القاهرة 1892 .

12 - محمد بلخوجة، سلوك الإبريز في مسالك باريز، تونس 1900 .

13 - جورج زيدان، رحلة إلى أوروبا، 1912 .

14 - محمد المقداد الورتتاني، البرنس في باريس، رحلة إلى فرنسا وسويسرا، تونس
1914 م.

15 - محمد بن الحسن الثعالبي، الرحلة الأوروبية، 1919 .

16 - عنبرة سلام الخالدي، شرقية في إنجلترا، 1922 .

17 - درية شفيق، رحلتي حول العالم، 1945⁽²²⁾ .

إن العلاقة بين الشرق والغرب، لا تصح اليوم إلا بوصفها وصفاً دقيقاً يتجاوز الثنائية المفاهيمية التقليدية، فلا الشرق أصبح شرقاً ولا الغرب أصبح غرباً بالمعنى المتناول في كتابات عصر النهضة.

3 - جدلية الاستشراق والاستغراب

يرى المستشرق الألماني ألبرت ديتريش أن المستشرق هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق.⁽²³⁾ وفي المقابل أيضاً نجد كلمة مستغرب واستغراب تدلان على الميل نحو الغرب إعجاباً أو تقليداً أو دراسة، ولكن هل يمكن تحديد المفهوم الجغرافي للشرق الذي انكب المستشرقون على دراسته؟ إن تحديد هذا المصطلح جغرافياً غير ممكن؛ نظراً لاختلاف الجهة المحدد منها، فالشرق بالنسبة للألماني مثلاً هو غير الشرق بالنسبة للأمريكي، كما اختلف في تحديد الشرق جغرافياً تبعاً لاختلاف العصور.⁽²⁴⁾

وقد رأى حسن حنفي أن الاستغراب هو الوجه المقابل والنقيض من الاستشراق، وأن الإشهار بسقوط الاستشراق⁽²⁵⁾ شجع على ظهور ثلاثة مصطلحات: الاستغراب والتغريب والاستغراب المقلوب. فالاستغراب - كما يرى حسن حنفي - ليس فقط مجرد نقيض الاستشراق أو الاستشراق المضاد أو الاستشراق معكوساً، بل هو أيضاً رد فعل على التغريب ومحاولة انتشال الأنا الحضاري من الاغتراب في الآخر.

والتغريب هو إضفاء الصبغة الغربية على الثقافة العالمية، وقد وجه سيرجي لانوش في كتابه «تغريب العالم» اتهاماً قوياً لنزعة التغريب على اعتبار أنها «الواقع نحو الاتساق العالمي، و تقييس أنماط الحياة على مستوى العالم»⁽²⁶⁾.

والاستغراب المقلوب هو أن يرى المفكر والباحث صورته في ذهن الآخر بدلاً من أن يرى صورة الآخر في ذهنه. وقد انتقد إدوارد سعيد عزوف الباحثين في العالم عن دراسة الغرب، ويذكر أن عدداً من المثقفين العرب المسلمين يذهبون إلى الغرب ليكتبوا عن العالم الإسلامي، وما قال: «إن صادق جلال العظم مثلاً الذي يفترض أنه ناقد كبير قضى ثلاث سنوات في أمريكا، وجل ما فعله هو تدريس الشرق الأوسط إلى صغار أمريكا». وأطلق إدوارد سعيد على ذلك بأنه نوع من «الترجسية» التي تدعو إلى الأسى عند جزء من المثقفين العرب. وتساءل إدوارد سعيد: «لماذا لا تكون لدينا إسهامات عربية معاصرة أكثر أهمية في

دراسة فرنسا وألمانيا وأمريكا». فالعرب أصبحوا - في نظر إدوارد سعيد - «أسرى حالة من الـ «غيتو»؛ لأنهم يكتبون عن العالم العربي بالفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية، وينظر إليهم كمخبرين محلين⁽²⁷⁾.

وقد يتساءل المرء لماذا تأخر العرب في دراسة الغرب، على الرغم من أنّ الغرب قد درس العرب والشعوب الأخرى في الشرق قبلنا، في حين أن المسلمين حينما خرجوا من الجزيرة العربية كانوا على معرفة بالشعوب والأمم الأخرى، منها من حدثهم بها القرآن الكريم، ومنها من عرفها من خلال التجارة والرحلات. لقد بدأ الغرب بإنشاء مراكز ومعاهد ودوائر علمية لدراسة العالم الإسلامي منذ عدة قرون، بل إنها أعدت متخصصين لدراسة الشعوب والأمم الأخرى. وقد عرف الغرب الشرق معرفة دقيقة من حيث المجالات العقدية والتشريعية والتاريخية والأدبية، في حين أن المسلمين، في فترة من الزمن، أغفلوا دراسة الغرب، ولكنهم استدركوا في الوقت الحاضر، وأخذوا يهتمون بدراسة الغرب دراسة دقيقة ومعرفته عقدياً وتاريخياً واقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً من خلال تأسيس مراكز «استغرابية» عبر معايير «علم الاستغراب» الذي سيهتم بدراسة الغرب من جميع الجوانب كما فعل الاستشراق ومراكزه.

وكما هيمن الاستشراق على اهتمام الغربيين مدة أربعة قرون وأنتج إنجازات ودراسات وتحقيقات كثيرة في شؤون الشرق والغرب، ينبغي على الاستغراب أن يهيمن على فكرنا لكي ندرس الغرب كما درسنا، ولكن دون اتباع أساليب بعض الاستشراق الاستعمارية، وقد أشار الى ذلك إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق»، فقد مزج فيه بين الاستشراق والاستعمار، وشرح فيه البنية الأيديولوجية والوظيفية للاستشراق في خدمة المؤسسة السلطنة⁽²⁸⁾.

وينبغي أن تتوحد جهود المفكرين العرب في السعي لمعرفة الغرب دراسة بعيدة عن التلفيق والترقيع والتحريف كما فعل بعض المستشرقين، لتقلب موازين القوى في الاستشراق إلى ما يعاكسه أحياناً أو ما يضاده أحياناً أخرى إلى حد التناقض، وفي هذا الاتجاه يأتي مشروع حسن حنفي في الاستغراب. ولكن يجب أن نبتعد عن الاستغراب الذي يختزل البعض أهدافه في فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، وإزالة

نزعة العظمة لدى الآخر (الغرب) بتحويله من ذات دارس (في الاستشراق) إلى موضوع مدروس (في الاستغراب).

4 - جدلية الهوية والعولمة

لقد تراجع الاستشراق بعد تصاعد حركات التحرر والاستقلال من الاستعمار القديم في العالمين العربي والإسلامي، وصار المستشرقون المعاصرون المتهمون بالانحياز إلى الغرب يدافعون عن هذا التراجع الذي لم يعد درساً للعرب أو الشرق، بل تحوّل إلى تخصصات في الأمم الشرقية كافة، وتعميم ثقافة الغرب وصولاً إلى ثقافة عالمية واحدة تلغي الثقافات المحلية والوطنية والقومية، وتحل محلها وتهيمن على مسالكها ومنابعها. وتكمن خطورة العولمة على الهوية من خلال نشوء حالات من التبعية الثقافية واللغوية والاقتصادية في العالم الثالث بحيث يصبح الشرق مجرد مستهلك لثقافة الغرب⁽²⁹⁾. وجوهر التبعية الثقافية في العالم الثالث يمكن تشخيصه وتوضيحه من خلال إرجاعه إلى الإطار التاريخي الاستعماري الغربي مضافاً إليه محاولات أمريكا في المرحلة المعاصرة للسيطرة على ثقافات العالم الثالث بخاصة، وبقية ثقافات العالم بشكل عام، يساندها في ذلك ما لديها من قدرات إعلامية هائلة، فضلاً عن إمكانياتها الضخمة في تكنولوجيا الاتصالات والنشاط المحموم لوكالات الإعلان الدولية والشركات المتعددة الجنسيات⁽³⁰⁾.

وأشار إدوارد سعيد إلى هذه الهيمنة الثقافية الغربية في كتابه (الاستشراق) حيث يقول: «يشكل العالم العربي اليوم تابعاً فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة، ولا تبعث هذه العلاقة على الأسي بحد ذاتها، لكن الشكل المحدد الذي تتخذه علاقة التبعية هذه هو الذي يبعث على الأسي». ويستنتج صادق جلال العظم من ذلك قوله: «لا ينصب اعتراض إدوارد سعيد وأساه على تبعية العالم العربي الفكرية والسياسية والثقافية للولايات المتحدة، بل على الشكل المحدد الذي تتجلى فيه هذه التبعية⁽³¹⁾. وقد دارت سجلات كثيرة حول جدلية الهوية والعولمة في الفكر العربي الحديث، وأدرجت في إطار معادلة الأنا والآخر، لكن هذه «الأنا» المتحصنة بثقافة ولغة ودين تعصمها من خطورة الاستلاب والذوبان، فإذا كانت الحضارة الغربية قد أخذت من الحضارة العربية الإسلامية، فلا مانع ولا خطر الآن من أن تأخذ الحضارة العربية الإسلامية الراهنة. فالمصاهرة الجديدة بين حضارتين، إحداهما

أعطت في الماضي وتأخذ اليوم والعكس صحيح أيضاً، لذا يقول فؤاد زكريا: «من الواجب أن لا يجد المثقفون في هذه المنطقة من العالم حرجاً في مسايرتهم للحضارة الغربية؛ لأن هذه الحضارة ذاتها لم تتحرج في الماضي من استخلاص دعوماتها الأساسية من حضارات الشرق الأوسط»⁽³²⁾.

وكما يرى حسن حنفي أنّ علم الاستغراب هو دراسة الثقافة الغربية وتحليلها ومعرفة مكوناتها الأساسية ومنابعها الأصلية بهدف تحويله من مصدر العلم إلى موضوع للعلم كوسيلة لتحرير الأنا العربية والإسلامية من الوقوع في تقليد الغرب والتبعية له دون التنكر لإنجازاته العلمية والتكنولوجية والحضارية، ودون تشويه أو تحريف لواقعه الثقافي⁽³³⁾.

وهكذا لقد تم عرض مفهومات لجدليات الأنا والآخر، والشرق والغرب، والاستشراق والاستغراب، والهوية والعولمة، وهي في الوقت ذاته شكلت دوافع وحوافز لتدفع الشرق وبخاصة العرب والمسلمين إلى توسيع أفق الحوار الحضاري، ومد الفضاء الثقافي كي تتحول الذات العربية من ذات مدروسة إلى ذات دارسة، وكي لا يظل العرب مجرد متلقين لما يقوله الغرب عن نفسه وعنهم. وأن يعرف الشرق الغرب على حقيقته واستيعابه وتحليل بنيته الحضارية. وهذا ما يسعى إليه علم الاستغراب الذي يهدف إلى فهم الغرب (بمفهومه المتعدد) وتفهمه لإنعاش حوار حضاري معه يجعل الشرق (بمفهومه المتعدد أيضاً) شريكاً وليس امتداداً للغرب، ويدعم التفاهم والتعايش والتعاون معه، ويمهد الطريق لتبادل المكتسبات والتجارب، مما يساهم في ضمان السلام والاستقرار والتنمية للجميع.

وكي لا نقع في المأزق الذي وقع فيه الاستشراق، يجب أن لا يتحول الاستغراب إلى استشراق مضاد أو استغراب انتقامي أو تحريضي، ويجب أن تتم دراسة الغرب من منطلق علمي لا تقزيم ولا تحريف ولا تلفيق ولا انغلاق فيه، بحيث نقرب مقولة جوته شاعر ألمانيا الكبير الذي طابت له هجرته الروحية العظمى إلى الشرق في قصيدته (الهجرة) حيث يقول: «الشرق والغرب والجنوب في قتال، وأقطارها تتناثر بدداً، فهاجر وامض إلى الشرق الطهور»⁽³⁴⁾ إلى: «الشرق والشمال والجنوب في قتال، فهاجر وامض إلى الغرب».

الهوامش والمراجع

- (1) د. أحمد درويش، الاستشراق الفرنسي والأدب العربي، القاهرة: دار غريب، 2004، ص 34.
- (2) زيغرد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق ببيضون وكمال الدسوقي، مراجعة: مارون الخوري، بيروت: دار صادر ودار الآفاق، ط 1، 1964.
- (3) إبراهيم العريض، « كتاب الاعتذار » لأسامه بن منقذ : احترام الآخر ولو كان عدوك !، مجلة الحياة، موقع إلكتروني، الإثنين فبراير 2012 . وانظر، أسامة بن منقذ، الاعتبار، تحقيق فيليب حتي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1999.
- (4) عادل بهبهاني، علم الاستغراب، موقع على الإنترنت - موقع خولة القزويني.
- (5) مستوحاة من مقالة: « الاستغراب بين الضرورة والترف والتحريف - محاولة لفهم الغرب » .
www.tshbek.com 2009 /11 /12
- (6) عبد الرحمن الجبرتي، موقع على الإنترنت.
- (7) قارن، د. جميل حمداوي، جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، مجلة دروب، مجلة إلكترونية، 26 / يونيو / 2010، والعلوي رشيد، صورة الآخر في الوعي العربي الحديث، « تخلص الإبريز في تخلص باريز » الطهطاوي نموذجاً «، صحيفة المثقف، العدد 2061 (صحيفة إلكترونية)، 16 / 3 / 2012 .
- (8) انظر، العلوي رشيد، مرجع سابق.
- (9) المستشرق الألماني هابنريش نون مالتزان، خير الدين التونسي، موقع على الإنترنت.
- (10) المرجع نفسه.
- (11) إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة: كمال أبي ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 6، 2003، مقدمة المترجم، ص 6.
- (12) المرجع نفسه، مقدمة المترجم، ص 4.
- (13) انظر، محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار نهضة مصر، ط3، د.ت، ص 410، وانظر: إيهاب النجدي، صورة الغرب في الشعر العربي الحديث، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2008، ص 61 وما يليها.
- (14) الاستغراب، الرد على منتقدي دراسة الغرب www.maclinacenter.com
- (15) د. عبد الأمير الأعسم، فلسفة حسن حنفي في الاستغراب، جريدة الثورة، ملحق ثقافي، 20 / 1 / 2009
thawra.alwchda.goosy
- (16) عمر فاخوري، آراء غربية في مسائل شرقية، دار الكاتب العربي، بيروت، ط2، 1955 .
- (17) خيرى منصور، الاستشراق والوعي السالب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 2005، ص 29 وما يليها.
- (18) مجلة « الرسالة » لأحمد حسن الزيات، ومجلة « الثقافة » لأحمد أمين، انظر، إيهاب النجدي، مرجع سابق، ص 61 - 63 .
- (19) انظر، د. محمد الحداد، جدل الشرق والغرب، قراءة مقارنة في مواقف شاتوبريان ولامارتين وشوقي، في كتاب: دورة شوقي ولامارتين، الجزء الثاني، الكويت 2008، ص 429 وما يليها.

- (20) المرجع نفسه، ص 428 .
- (21) دراسة لصورة الإفرنج في كتاب « الاعتبار »، موقع إلكتروني.
- (22) إيهاب النجدي، مرجع سابق، ص 42، وقد اعتمدت عليه في تسجيل هذه الرحلات، وانظر، جابر عصفور، الرحلة إلى الآخر في القرن التاسع عشر، ومحمد عيسى صالحية، البلاد الروسية في عين الشيخ محمد الطنطاوي، ونوري الجراح، المشروع الجغرافي العربي (ارتياح الآفاق) ضمن أبحاث ندوة العربي : (الغرب بعيون عربية)، الكويت 27 29 - / 12 / 2003، وناجي نجيب، الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، وحسين محمد فهم، أدب الرحلات، عالم المعرفة رقم 138، الكويت، يونيو 1989 .
- (23) ألبرت ديتريش، الدراسات العربية في ألمانيا - تطورها التاريخي ووضعها الحالي -، دار فرانز شتاين، فيسبادن، ط2، 1968، ص 88 .
- (24) قارن، محمد فتح الله الزبادي، الاستشراق في الميزان، الاستشراق، النشأة، الدوافع، مجلة رسالة الجهاد، العدد 98، السنة العاشرة، ليبيا، رمضان 1400، إبريل 1990، ص 88 .
- (25) يجب الإشارة هنا إلى أن الاستشراق ما زال قائماً وحيّاً، إلا أنه أخذ أسماء جديدة فصارت الدراسات الاستشراقية تسمى بدراسات الشرق الأدنى والأوسط أو الدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية، انظر الاستغراب بين الضرورة والترف والتحريف - www.tshbek.com
- (26) د. جون توملبتسون، العولمة والثقافة، ترجمة: د. إيهاب عبد الرحمن محمد، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، رقم 354، أغسطس 2008، ص 123 - 132 .
- (27) انظر، إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، عمان، دار الفارس، 1996، ص 149 وما يليها.
- (28) انظر إدوارد سعيد، الاستشراق...، ط 6، 2003 .
- (29) قارن د. جون توملبتسون، مرجع سابق، ص 165-175 .
- (30) انظر، عواطف عبد الرحمن، قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، الكويت: سلسلة عالم المعرفة، العدد 78، حزيران 1984، ص 144 وما يليها.
- (31) صادق جلال العظم، الاستشراق والاستشراق معكوساً، بيروت: دار الحداثة 1981، ص 26، وانظر، خيرى منصور، الاستشراق والوعي السالب، ص 45 .
- (32) فؤاد زكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975، ص 29، وانظر، خيرى منصور، مرجع سابق، ص 39.
- (33) انظر، حسن حنفي، مقدمة في علم الاستغراب، بيروت: الدار الجامعية للنشر، 1992 .
- (34) د. عبد الرحمن صدقي، الشرق والإسلام في أدب جوته، القاهرة: كتاب الهلال، العدد 195، يونيو 1967، ص 68، وانظر، كاترينا مومزن، جوته والعالم العربي، ترجمة: د. عدنان عباس علي، ومراجعة: د. عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، رقم 194، شباط 1995، ص 98 وما يليها، ص 236 وما يليها.